أهلُ الذمة في العصر الأُموي

(٤١-١٣٢هـ /٦٦١-٧٥٠م)

د.عبد الخالق خميس علي
كلية التربية / جامعة ديالى

د.عاصم إسماعيل كنعان
كلية التربية / جامعة ديالى

المقدمـــة :

جاءت نظرة الإسلام للديانات السماوية التي سبقته نظرة ود، فقد اعترف بتلك الرسالات وآمن بالأنبياء الذين تقدموا الرسول (ص) ، بل جعل الإيمان بكتب الله ورسله شرطاً لصحة العقيدة الإسلامية .وأكد القران الكريم على عدم فرض الإسلام بالقوة ، قال تعالى: ((لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي))(١)،لذلك نرى التسامح والأمان الذي نَعِمَ به أصحاب الديانات السماوية الأخرى،الذين أطلق عليهم الإسلام (وهم يقطنون في دار الإسلام) اسم (أهل الذمة) ، الذي نصت عليه تشريعات الإسلام التي نظمت العلاقة بين المسلمين والذميين سواء منها في القرآن الكريم أو السنة النبوية ، وعليها سار الخلفاء فيما بعد .

وهذا البحث يتناول دراسة جوانب الحياة المختلفة للذميين في العصر الأموي(٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٥٠م) وان بشكل مختصر، ولا جدال في أن الذميين استمتعوا بتسامح المسلمين خلال هذا العصر الذي عُرِفَ بحسن معاملته لهم ،إذ أباح خلفاء بني أمية لهم حرياتهم كاملة حتى في احتفالاتهم بأعيادهم ،لأن الإسلام لا يُكرِه الناس كي يكونوا مسلمين ، كما لا يمنع المسلمين من العيش مع مخالفيهم في العقيدة والدين، وليس من لوازم الإيمان بهذا الدين القطيعة مع غير المسلمين ورفض العيش المشترك معهم في ظل دولة الإسلام.

يتناول البحث بدايةً تعريف بأهل الذمة ومِمَ يتكونون،واختلاف الفقهاء في تعدادهم، ثم أحوالهم أيام الرسول الكريم (ص) والخلفاء الراشدين (رض) ، ثم يتناول الجزية بشكل عام وأهميتها ومقاديرها، ثم يسترسل الحديث عن أوضاع الذميين في العصر الأموي من جميع جوانب حياتهم سواء كان في جوانب الوظائف الإدارية أو حياتهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية.

ونجد أن مصادر دراسة مثل هذا الموضوع قليلة، فيستوجب هذا الحصول على المعلومات والروايات والأحداث بين الصفحات والأسطر،وقراءة مصادر متعددة ، ومن الممكن القول ان مثل هذا الموضوع جدير بالدراسة لتوضيح أكبر قدر من الأحداث الغامضة في هذا الجانب، لاسيما مع ندرة الدراسات الأكاديمية والبحثية فيه.

أولاً/ الذميـون ـ أهل الذمـة.

الذمة في اللغة هي العهد والأمان والضمان، وأهل الذمة هم المعاهَدون من اليهود والنصارى والصابئة ممن يقيموا بدار الإسلام (٢).

والذمة في الفقه الإسلامي هي العهد الذي يُعطى لليهود والنصارى والصابئة الذين لم يعتنقوا الإسلام عند فتح المسلمين لبلادهم ،لايُستَرقون ويؤمَّنون على حياتهم وحريتهم وأموالهم لذا يُطلق عليهم (أهل الذمة) أو (الذمة) فقط ، وهي تنطوي على حقوق لهم على المسلمين مقابل التزامات يؤديها الذميون للمسلمين(٣) .والحكمة في عقد الذمة معهم احتمال اعتناقهم للإسلام عن طريق اطلاعهم على شرائعه ومخالطتهم للمسلمين ،وليس المقصود منه تحصيل المال(٤).

وقيل في تفسير معنى عقد الذمة انه إقرار بعض الكفار على كفرهم بشرط بذل الجزية والتزام أحكام الملة[٥] ، لذا فهو عقد يصير بمقتضاه غير المسلم من أصحاب الأديان السماوية في ذمة المسلمين ، أي في عهدهم وأمانهم بشكل دائم ، وله الإقامة في دار الإسلام على وجه الدوام [٦].

وأُطلِقَ على أهل الذمة أيضاً:(أهل الكتاب) أي الذين لهم كتب منزلة كاليهود والنصارى ، وممن لهم شبه كتاب كالصابئة والمجوس ، وبعد الفتح الإسلامي خضعوا للمسلمين وأصبحوا في ذمة الإسلام لذا أُطلِقَ عليهم أهل الذمة [٧]. وورد ذكر(أهل الكتاب) في آيات عديدة من القرآن الكريم [٨].

وقد اختلف الفقهاء في أمر الصابئة و المجوس،فالصابئة الذين يعبدون الكواكب ليسوا بأهل كتاب(عند الفقهاء جميعاً) ، والظاهر إن اختلافهم في أمر الصابئة هو لخفاء حقيقتهم وعدم وضوح ديانتهم ، فقال كل فقيه فيهم بناءً على ما ظهر له من أمرهم أو بناءً على ما ظنه فيهم[٩]. ومساكن الصابئة الرئيسة عند مصب نهر الفرات وفي الأهوار جنوب العراق وفي مدينة حران ،وفي العراق اليوم أقلية منهم وهم يعتقدون بالخالق (عز وجل) ويؤمنون باليوم الآخر.ويقولون إنهم يتبعون تعاليم سيدنا آدم (ع) وان نبيهم يحيى (ع) جاء لتنقية دين آدم ما علق به ،ولديهم كتاب مقدس يدعى(الكانزابرا)[١٠].

أما المجوس فهم يعظّمون الأنوار والنيران ويدّعون نبوة(زرادشت)،وهم ليسوا بأهل كتاب وعليه اتفاق جميع الفقهاء بدليل قوله تعالى: ((إن تقولوا إنما أُنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا))[١١] ، فلو كان المجوس من أهل الكتاب لكانوا ثلاث طوائف وهذا خلاف ما عليه الآية الكريمة.كما إن قول رسول الله (ص):((سُنّوا بهم سُنّة أهل الكتاب))، يدل على إنهم غيرهم، إذ لو كانوا منهم لقال هم من أهل الكتاب[١٢] ، وقد روى القاضي أبو يوسف إن رسول الله (ص) أخذ الجزية من مجوس هجر(في البحرين)[١٣].
ثانيا/الذميون في عهد الرسول(ص) والخلفاء الراشدين.

شهدت العصور الإسلامية الأولى تسامحاً وأماناً تجاه الذميين، وذلك بما وضعه الإسلام من قواعد وتشريعات لتنظيم العلاقة بين المسلمين وبينهم، وما وضعته السنة النبوية من أسس وتشريعات سار عليها الخلفاء.وقد أوصى القرآن الكريم معاملتهم بالتي هي أحسن ، قال تعالى : ((ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون)) [١٤] ، وحث القرآن على مودتهم والاختلاط بهم ، قال تعالى : ((اليوم أُحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم)) [١٥].
وقد عامل النبي (ص) الذميين بكل تسامح، وكتب عقود صلح لبعضهم على أن يدفعوا الجزية ،مثل يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة [١٦] ، وكان مقدارها عن كل حالم(ذكر بالغ) ديناراً واحداً في السنة ،وبلغ مجموع ما استُحصِل منهم ثلاثمئة دينار . كما صالح النبي(ص) أهل نجران عن ألفي حُلة ثمن كل حُلة أربعون درهما[١٧]. وأوصى الرسول (ص) بالوفاء بحقوق الذميين وحمايتهم ورعايتهم وعدم تكليفهم ما لا يطيقونه قائلا: ((من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة))[١٨].وكان الرسول (ص) يحضر ولائمهم ويعود مرضاهم ويزورهم ويقترض منهم حتى أنه توفي ودرعه مرهونة عند يهودي[١٩].

وكانت سياسة الخلفاء الراشدين (رض) مشابهة لسياسة الرسول (ص) في معاملة الذميين ،فنجد كتاب الخليفة أبو بكر الصديق (رض) لأهل نجران مؤكداً فيه التزامه بعهد النبي (ص) كما نراه يوصي قواده في حركة الفتوحات بهم : ((.... لا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله فيطلبك الله بذمته)) وكان الخليفة عمر بن الخطاب(رض) يوصي المسلمين بحسن معاملة الذميين وان لا يُكلَّفوا فوق طاقتهم(٢٠). وكذا كان الحال في عهد الخليفة عثمان بن عفان(رض)، حيث كتب إلى عماله يوصي بالذميين خيراً: ((الوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم، ولا المعاهَد فان الله خصم لمن ظلمهم ....))[٢١] ، وبسط الإمام علي بن أبي طالب (ع) العدل والتسامح للذميين ويتجلى هذا في وصيته لعامله:((انظر إذا قدمت عليهم [الذميين] فلا تبيعنَّ دابةً يعتملون عليها، ولا تضربنَّ أحداً منهم سوطاً واحداً في درهم ، ولا تُقمه على رجله في طلب درهم ، ولا تبع لأحدٍ منهم عرضاً من شيء من الخراج ، فإنّا أُمرنا أن نأخذ منهم العفو))[٢٢].

إن تسامح الرسول (ص) والخلفاء الراشدين (رض) مع الذميين كان له أثر كبير في حمل الكثير منهم على اعتناق الإسلام ، لما لمسوا فيه من عدالة وحرية ، وكان أسرع الناس لقبول الإسلام الطبقة العامة من أصحاب الحِرف والصُنّاع والفلاحين الذين اعتنقوه بحماسة ، كما يقول المستشرق توماس آرنولد [٢٣].

ثالثـاً/ الجزيــة:

هي الضريبة التي فرضها الروم البيزنطيون على أهل الشام ومصر ، كما فرضها ملوك الفرس الساسانيون على عامة أهل العراق [٢٤] ، ولما تم فتح العراق وفارس والشام ومصر فرض الخليفة عمر بن الخطاب (رض) الجزية على غير المسلمين ، ما عدا نصارى تغلب وأهل نجران ،حيث فُرضت عليهم ضريبة واحدة بدل الجزية والخراج ، فالجزية هي ما يؤخذ من الذميين ، وقيل هي الخراج المضروب على رؤوسهم وتؤخذ ممن دخل الذمة من أهل الكتاب والمجوس والصابئة لقاء حمايتهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين كما في قول الرسول (ص) ((احفظوني في ذمتي)) ، وقد أوجبت الجزية عليهم استناداً إلى ما جاء في القرآن والسُنة والإجماع[٢٥]، قال تعالى:((قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرِّمون ماحرَّم الله ورسولُه ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون))[٢٦] .

وقد أجمع الفقهاء على أخذها من أهل الكتاب ومن المجوس ، فقد أخذها الرسول (ص) من مجوس هجر(في البحرين) ،كما أخذها عمر بن الخطــاب (رض) من مجوس العراق ، وقيل إن الخليفة عمر تردد أول الأمر ثم قال : ما أدري كيف أصنع بالمجوس ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف:((أشهد إني سمعت رسول الله (ص) يقول:((سُنوا بهم سُنّة أهل الكتاب))، ومعنى هذا أنهم ليسوا من أهل الكتاب[٢٧] .

وتجب الجزية على الذكور العقلاء البالغين ولا تجب على الصبيان والنساء والشيوخ والرهبان والمجانين والمرضى[٢٨]. والواقع أن الجزية لا تعد عقوبة في حق الذمي لبقائه على دينه ،وإنما هي مساهمة مادية منه للدفاع عن بلاده التي يسكنها(دار الإسلام) ، فلو كانت الجزية عقوبة لوجبت على جميع الذميين دون استثناء ، ولفُرضت بالدرجة الأولى على رجال دينهم كونهم أصحاب الدين المخالف للإسلام . وتسقط الجزية عن الذمي في حالة إسلامه أو موته أو عجزه أو فقره أو عجز المسلمين عن حمايته أو التحاقه بأهل دار الحرب[٢٩] .

أما وقت جبايتها فتكون في بداية السنة الهجرية أي في شهر محرم، أو في آخرها، وأحياناً كانت تُقسَّط إلى أقسام حسب إمكانيات دافعها ، أما مقاديرها فقد اختلفت باختلاف أئمة المسلمين في تقديرها ، فقد وضع الرسول (ص) الجزية على من بالمدينة ومكة وخيبر واليمن ونجران من النصارى واليهود والمجوس وجعلها على الرجل ديناراً واحداً ، واستثنى من ذلك النساء والصبيان ثم جعلها عمر بن الخطاب (رض) على أهل السواد في العراق أربعة دنانير (٤٨ درهماً) على الأغنياء ،وعلى المتوسطين ديناران (٢٤درهماً) ، وعلى من دون ذلك بشرط

أن يكونوا ذوي حرفة ديناراً واحداً (١٢درهماً) سنوياً. وفعل ذلك على قدر الطاعة واليسار، ويظهر أن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) أراد من هذا الإجراء أن يجعل من هذا التقسيم نظاماً ثابتاً يسير عليه المسلمون فيما بعد ، ولا يتعين في الجزية ذهباً وفضة ، بل يجوز أخذها مما يتيسر من أموالهم من ثياب وسلاح ومواشي وحبوب وما إلى ذلك [٣٠].

أهل الذمة في العصر الأموي.

أولاً/ دورهم في الوظائف الإدارية.

اتبع خلفاء بني أمية سياسة التسامح مع الذميين ، ومن مظاهرها هو استعمال هؤلاء الخلفاء لهم في مهام حكومية في الدولة ، فقد استخدم مؤسس الدولة الأموية الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٨٠م) كاتباً نصرانياً يدعى سرجون بن منصور ، واستمر في عمله هذا حتى بعد وفاة معاوية ، ولما تم نقل الدواوين إلى العربية قال سرجون لأبناء جلدته:((اطلبوا المعيشة من غير هذه الصنعة فقد قطعها الله عنكم)) ، مما يدل على إن هذا كان عملهم الرئيس في الدولة، إلا انه لم يقدر لهذه النبوءة أن تتحقق فقد مات سرجون وخلفه ابنه، وكانت عادة الدولة قد جرت على استعمال النصارى الذين قلما خلا منهم ديوان من دواوين الدولة[٣١]. ولما أُنشئت دار السكة الإسلامية أو دار الضرب كان يعمل فيها كثير من العمال والطباعون الذميين لخبرتهم في شؤون المال[٣٢].

ومن الأشخاص المعروفين الذين تقلدوا مناصب إدارية هو اثناسيوس الرهاوي الذي شغل بعض مناصب الحكومة في مصر، فقد عينه الخليفة مروان بن الحكم(٦٤-٦٥هـ/٦٨٤-٦٨٥م) أولاً مع نصراني آخر يدعى إسحاق ، ثم بلغ مرتبة الرئاسة في دواوين الإسكندرية ، وحمل بقية الموظفين النصارى على رفع ملتمس إلى والي مصر حول الشؤون الكنسية، وبان بيعة الإسكندرية يلزمها خراج عظيم لسد نفقاتها ،وكان يُنعَت في المكاتبات الرسمية بـ(الكاتب الأفخم) ، ويتبعه بديوانه عشرون كاتبا ثم ازدادوا إلى أربعة وأربعين ، واثناسيوس هذا هو متولي ديوان الخراج لوالي مصر عبد العزيز بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م)، ثم انتهى الأمر أخيراً بصرفه عما بيده[٣٣]. وهناك شخص آخر يدعى تيودوسيوس من الملكانيين[٣٤] البارزين شغل منصباً رفيعاً في الإسكندرية.

وقد تعلم بعض الذميين اللغة العربية ، ليستمروا بممارسة الأعمال الإدارية ، فإلى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) كان جباة الضرائب من الذميين ، كما كان حكام الكورات المختلفة منهم ، وان إدارة واليه على مصر قرة بن شريك (٩٠-٩٦هـ /٧٠٩-٧١٥م) قد تركت معظم وظائف الدولة في أيدي الذميين[٣٥].

واتخذ سليمان عبد الملك(٩٦-٩٩هـ/٧١٥-٧١٨م) لنفسه كاتباً نصرانياً يدعى البطريق بن النقا، استعمله ناظراً على مبانيه في الرملة(من أعمال فلسطين) ومراقبة الآبار والقنوات فيها [٣٦].

أما في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز(٩٩-١٠١هـ/٧١٨-٧٢٠م) فقد حدث تغير مهم في هذا الجانب ،وهو الحد من مناصب أهل الذمة في الإدارة حيث كره أن تكون يد الذمي هي العليا فيكون له السلطان على المسلمين ،وحاول منع ذلك، ورسالته إلى الولاة في هذا الصدد تعليمية حيث يقول فيها:((أما بعد: فان الله عز وجل أكرم بالإسلام أهله وشرَّفهم وأعزَّهم، وضرب الذلة والصغار على من خالفهم وجعلهم خير أمة أُخرجت للناس فلا تولين أمور المسلمين أحدا من أهل ذمتهم وخراجهم فتنبسط عليهم أيديهم وألسنتهم فتذلهم بعد أن أعزهم الله وتهينهم بعد أن أكرمهم الله تعالى وتعرضهم كيدهم والاستطالة عليهم ، ومع هذا فلا يؤمن غشهم إياهم ، فان الله عز وجل يقول:لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودّوا ما عنتم ...؛ ولا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض...والسلام))[٣٧] ،ولنا أن نتساءل لِمَ لا يحتل المسلمون المناصب المناسبة في الدولة الإسلامية وقد كانوا أكثرية عددية مؤهلة خبرة وكفاءة لتلك المناصب قادرين على القيام بها ، فضلا عن ذلك ازداد اعتناق الذميين للإسلام في عهد الخليفة

عمر بن عبد العزيز وأصبح المسلمون أكثرية عددية، فكان أمراً طبيعياً أن يُفسَح لهم الطريق لتولي مناصب الدولة وإحلالهم محل الذميين ،وإلا لكان وضعاً شاذاً .

ولو قارنا بين الأوضاع في زمن الخليفة معاوية وما بعده وبين زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز نجد فرقاً وبوناً شاسعاً، ففي أول عهد الدولة الأموية كان الذميون يتولون دواوين المال وشؤون الضرائب ولم يكن بوسع المسلمين تنحيتهم عن هذه المناصب وكان ذلك أمراً عسيراً يصعب تحقيقه، فكيف يمكن الاستغناء عنهم ولم يكن للمسلمين خبرة بتلك الأعمال؟ إذ استعان الخلفاء بالذميين في البداية لعلمهم بالجباية والتدبير فكانت لهم في ذلك مدة [٣٨].

من كل ذلك يتضح لنا أن عمر بن عبد العزيز حينما أحل المسلمين محل الذميين في مناصب الدولة لم يفعل ذلك تعصباً ضدهم ولم يكن اختلافهم مع المسلمين في العقيدة يمنعهم من الاشتراك في تولي المناصب الإدارية، فالدولة الإسلامية دولة عقائدية فكرية تنفذ تشريعات الإسلام وأحكامه بدقة كاملة علاوة على أنها تعمل على نشر العقيدة الإسلامية ،وان كان الأمر كذلك فليس من الغريب أن يدير شؤونها ويتولى مناصبها المؤمنون بعقيدتها وفكرها ومنهجها حتى تنجح في تحقيق غايتها ، وبالتالي فما الغريب في الأمر إن هي أبعدت غير المؤمنين بعقيدتها عن إدارة شؤونها أو تولي مناصبها ماداموا لا يؤمنون بما تؤمن فكيف يعملون على تحقيق غايتها ؟ تلك قاعدة معروفة وبديهية من بديهيات السياسة في العصر الحديث، فأي نظام في شرق العالم أو غربه لا يسند أموره إلا لمن يؤمن بفكره وعقائده. ومع هذا فان الذميين في خلافة عمر بن عبد العزيز؛ وإن كانوا قد وجدوا منافسة لهم من لدن المسلمين في مناصب الدولة وأعمالها، إلا إن الخليفة عمر كفل لهم حرية العمل ومباشرة كافة الأنشطة الاقتصادية والتجارية والزراعية وغيرها وحققوا من وراء ذلك أرباحاً طائلة.[٣٩]

ثانياً/ حياة الذميين الدينية.

أقر الإسلام حرية الاعتقاد للناس بمعنى انه لا يُكرِههم على اعتناقه وإن كان يدعوهم إليه، ولكن الدعوة إلى الإسلام شيء والإكراه عليه شيء آخر، فالأول مشروع والثاني ممنوع ، قال تعالى في الدعوة إلى الإسلام : ((ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن))[٤٠]، وقال تعالى في الإكراه : ((لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي))[٤١] . ومن القواعد المقررة في الشريعة الإسلامية بالنسبة للذميين قاعدة (تركهم وما يدينون) فلا يُتعرَّض لهم في عقائدهم ،فحرية العقيدة حق مضمون لهم ،بل أن هذا الحق واضح إذ لو لم يكن مقرراً مضموناً لهم لما شُرِّع عقد الذمة ولما جاز ،لان هذا العقد يتضمن إقرار الذمي على عقيدته وعدم التعرض له بسبب ديانته[٤٢]. وللذميين الحق في إقامة شعائرهم الدينية داخل معابدهم ويُمنَعون من إظهارها في خارجها في أمصار المسلمين لأنها مواضع أعلام الدين وإظهار شعائر الإسلام من إقامة الجُمع والأعياد وإقامة الحدود ونحو ذلك ، فلا يصح إظهار شعائر تخالفها[٤٣].

فعندما تم فتح الشام كتب الخليفة عمر بن الخطاب(رض) كتاباً إلى النصارى، ومما جاء في هذا الكتاب:أن لا يستحدثوا من الكنائس شيئاً، وألاّ يجددوا ما خرب منها وما تهدم، أو يعيدوا بناء البِيَع القائمة في نواح من المدن آهلة بالمسلمين[٤٤].وهناك رواية تذكر أن المسلمين تركوا جميع الكنائس لأصحابها[٤٥].

أما في العصر الأموي فمما يروى أنه قَدِمَ أحد الحجاج من الغرب واسمه(اركولفوس) وزار دمشق أيام الخليفة معاوية بن أبي سفيان وقال : في المدينة التي اتخذها سلطان المسلمين مقرا لحكمه(دمشق) بُنيت كنيسة كبيرة من أجل القديس يوحنا المعمدان [٤٦].

وحينما هدمت الزلازل جانباً من بيعة الرها الكبرى سنة ٦٠هـ/٦٨٠م أو ٦١هـ/٦٨١م أمر الخليفة معاوية بن أبي سفيان بترميمها وإعادتها إلى سابق عهدها[٤٧]، وهذا يدل على التسامح الديني الذي سلكه المسلمون وبالأخص الخليفة معاوية تجاه الذميين في عهده والذي لم يشهدوه في أي تاريخ لهم .

ويذكر المقريزي انه بُنيت كنيسة (مار مرقص) في الإسكندرية ما بين عامي ٣٩-٥٦هـ/٦٥٩-٦٧٦م زمن البطريرك(اغاثو)[٤٨]،وبُنيت أول كنيسة بالفسطاط في حارة الروم زمن ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧-٦٢هـ/٦٦٧-٦٨٢م) على مصر.ولما انشأ والي مصر عبد العزيز بن مروان بن الحكم مدينة حلوان في مصر أذِنَ لخادمين ملكانيين من خدمه ببناء كنيسة هناك عرفت بكنيسة (الفراشين). كما قام البطريرك (ليوناس) بتشييد كنيسة أخرى ، بل أن عبد العزيز رسم لبعض الأساقفة ببناء ديرين هناك، كما سمح لكاتبه (اثناسيوس) ببناء كنيسة في قصر الشمع ،فلم يكتف هذا بواحدة بل شيد اثنتين هما كنيستي (مار جرجس) و(أبي قير) داخل قصر الشمع وأقام ثالثة بالرها[٤٩]. وحينما أصبحت كميات الماء غير كافية لسد حاجة دير هند الصغرى في الحيرة ، أمر والي الكوفة بشر بن مروان بن الحكم(ت٧٥هـ/٦٩٤م) بشق جدول له من نهر الفرات[٥٠].

واتصف عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز بالعدل والإحسان للذميين حيث أنهم تمتعوا بالكثير من عدله ورحمته فقد أمر عماله بأن لا يهدموا كنيسة أو بيعة أو بيت نار صولح عليه أهل الذمة ،فقد طبق العدل بالحفاظ على مقدساتهم[٥١]. وحينما أمر قام الخليفة الوليد بن عبد الملك بهدم كنيسة يوحنا المعمدان في دمشق ليزيد في مساحة أحد المساجد، شكى النصارى إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، عند توليه الخلافة، ما فعل الخليفة الوليد ببيعتهم فأمر عامله على دمشق بإرجاع الكنيسة إلى أصحابها ففعل، فلم يقع ذلك موقع الرضا من أهل دمشق المسلمين الذين قالوا: انهدم مسجدنا بعد أن أذنّا فيه وصلينا، ويُرد بيعة؟! ومن ثم تم حل المسألة على أن يكون للنصارى كنائس الغوطة التي أُخذت عنوة وألاّ يعودوا للمطالبة بكنيسة يوحنا[٥٢]. كما أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز عماله بان لا يُقدِموا على هدم شيء من الكنائس وبيوت النار الموجودة يومذاك على ألاّ يأذنوا بإقامة أخرى جديدة[٥٣].

وللمستشرق الألماني يوليوس فلهاوزن رأي في معاملة الخليفة عمر بن عبدالعزيز للذميين حيث يقول: ((إن عمر بن عبد العزيز كان مسلماً متحمساً وان النصارى أحسوا بذلك ،ولكن عمر لم يُكرِه النصارى على الدخول في الإسلام مهدداً إياهم بالقتل لأنه لو كان فعل ذلك لكان فيه اعتداء على الحق القائم (الذي ضمنه الإسلام للنصارى) وهذا مالم يكن عمر يفعله لأنه مسلم حق، وهو فيما يتعلق بالنصارى فقد التزم بحدود الشرع التزاماً تاماً وإن كان الأمر ربما بدا في أعين النصارى على غير ذلك))[٥٤]. لذا نرى أن كل ما يمكن أن يقال عن الخليفة عمر بن عبد العزيز حول ظلمه وتعسفه في معاملة الذميين هو بعيد عن الواقع.

وفي سنة ١٠٤هـ/٧٢٢م هاجم أسامة بن زيد(متولي الخراج على نصارى مصر) الأديرة وهدم الكنائس ، فلما تولى الخلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٣-٧٤٣م) كتب إلى أسامة بن زيد بان يُجري النصارى على عوائدهم وما بأيديهم من العهد، ثم مضى البطريرك(قزما) إلى الخليفة هشام واستطاع بمعونة بعض العلماء أن يحمل الخليفة على أن يرد له الكنائس الملكانية بمصر وهي التي كان الأقباط قد استولوا عليها من قبل فكتب هشام الى واليه بمصر يأمره بأخذ هذه البيع من اليعاقبة[٥٥] .

أما عامل الخليفة هشام على العراق خالد بن عبد الله القسري(١٠٥-١٢٠هـ/٧٢٣-٧٣٨م) فقد بنى لأمه النصرانية كنيسة في الكوفة في ظهر قبلة المسجد الجامع، كما سمح للنصارى بوجه عام ببناء كنائس جديدة ،وكان متسامحاً مع اليهود أيضاً[٥٦].

من كل ما مر ذكره يمكن القول بان خلفاء بني أمية كانوا في معاملتهم للذميين امتداداً للتسامح الإسلامي مثلما عاملهم الرسول(ص) والخلفاء الراشدون (رض).

ثالثاً/حياة الذميين الاجتماعية.

من الأشياء المهمة التي لها علاقة بحياة الذميين الاجتماعية في العصر الأموي هي المراسيم التي تخص ملابسهم، لذلك سيختصر الكلام في مجال حياتهم الاجتماعية عن ملابسهم وما كان من شأن ذلك وتأثيره عليهم.

فمن الشروط التي اشترطها عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) على الذميين عند فتح الشام هو لبس الزُنّار(٥٧) ،والنهي عن التشبه بالمسلمين في ثيابهم وسروجهم التي يستعملونها ولا نقش خواتيمهم ولا يتخذون سلاحاً ولا سيفاً ولا يحملونه في سفر وحضر في ارض المسلمين(٥٨). والظاهر أن الغرض من فرض مثل هذه القواعد المتعلقة بالملابس هو لسهولة تمييزهم عن المسلمين، وهذا الأمر لا يرقى إليه شك، ويُقل المؤرخون الكلام عن ملابس الذميين، لذلك ليس لدينا سوى معلومات بسيطة عن هذه الناحية.

فمثلاً يروى أن الشاعر النصراني الأخطل (ت٩٥هـ/٧١٤م) كان يدخل على الخليفة عبد الملك بن مروان(٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م) وعليه جبة وحرز من الخز وفي عنقه سلسلة من الذهب ، تنفض لحيته خمراً (٥٩) ،ونعتقد أن ذلك الوصف مبالغ فيه ، أراد المؤرخون من ذلك بيان ما للأخطل من حظوة لدى الخلفاء الأمويين.وفي اتفاقية عام٨٩هـ/٧٠٨م المبرمة بين المسلمين والجراجمة الذين يسكنون المناطق الجبلية في جبل اللكام من بلاد الشام تضمن النص على أن يلبس الجراجمة لباس المسلمين(٦٠) ويمكن تفسير ذلك أن هؤلاء لم يكونوا قد دخلوا في عقد الذمة وان الدولة الأموية أرادت أن تبعد خطرهم عن الخلافة بعدم إجبارهم على إجراءات الملابس هذه ،إذ هم عصاة في مناطق شمال بلاد الشام وكانوا يتلقون المساعدات من البيزنطيين .

وللخليفة عمر بن عبد العزيز مراسيم بشان ملابس الذميين ، والروايات الواردة في هذا الصدد عديدة، فيذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن عبد العزيز كتب الى الآفاق أن:((لا يمشينَّ نصراني إلا مفروق الناصية(مقدمة شعر الرأس) ،ولا يلبس قباء ولا يمشي إلا بزُنّار من جلود ،ولا يلبس طيلساناً ولا سراويل ذات خذمة ولا نعلاً له عذبة ، ولا يوجدنَّ في بيته سلاح إلا انتُهِب ،ولا يركبنَّ نصراني على سرج وليركبوا بالأكف، ولا تركبن امرأة من نسائهم راحلة وليكن مركبها على اكاف))(٦١). ومما لا شك فيه أن الغرض من إصدار هذه الأوامر هي لتسهل التمييز بين المسلمين والذميين وعدم تشبههم بالمسلمين، ولا يمكن أن يكون هذا الموضوع دليلاً على رغبة عمر ومحاولته مضايقتهم ،أو أن يكون دليلاً على اضطهاده لهم بأي صورة ، فلو أراد عمر بن عبد العزيز أن ينال منهم لما خفف عنهم من الأعباء المالية ، ولكن قد تكون غيرته على الإسلام هو السبب في ذلك وليس كما يدَّعي فيليب حتي عندما يتحدث عن الخليفة عمر بن عبد ألعزيز ويقول:((أن شهرة عمر بن عبدالعزيز لم تقم على زهده وتعبده أو إلغائه للضرائب المترتبة على الداخلين إلى الإسلام وإنما قامت على أنه الخليفة الأموي الأول الذي وضع قيوداً صعبة على رعاياه من النصارى))، ويصف مراسيم تحديد ملابس الذميين بأنه نوع من المضايقة لهم(٦٢).ومما لاشك فيه أن الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يفعل ذلك إلا أسوة بما فعله من قبل الخليفة عمر بن الخطاب أو اعتقاده أن ذلك يدفعهم إلى اعتناق الإسلام (٦٣)، وأنه لم يهدف من وراء ذلك إلا صالح الدولة العربية الإسلامية والدين الإسلامي .

رابعـاً/حيـاة الذميـين الاقـتصاديـة.

للذميين حرية العمل في دار الإسلام ومباشرة النشاط الاقتصادي الذي يرغبون فيه ، ومزاولة العمل الذي يريدونه ، فقد قال الفقهاء أنهم في المعاملات والتجارات والبيوع وسائر التصرفات كالمسلمين ، إلا ما استثنى من معاملات الربا فهي محظورة عليهم كالمسلمين لان الرسول (ص) كتب إلى مجوس هجر: ((إما أن تذروا الربا أو تأذنوا بحرب من الله ورسوله)) وهذا يدل على تحريمها عليهم ، كما يُمنَع الذميون من بيع الخمور والخنازير أو إدخالها في أمصار المسلمين على وجه الشهرة والظهور ، إلا إن لهم بيعها في قراهم وأمصارهم أو في موضع ليس من أمصار المسلمين ولو كان فيه مسلمون ، فقد كان من أهل الذمة من أصحاب البضائع التي تدر أرباحاً وفيرة ، كما كان منهم الصيارفة والأطباء وأصحاب الضياع (٦٤).

ففي العصر الأموي بلغ من ازدياد تسامح الخلفاء الأمويين أنهم أعطوا امتيازات لرؤساء أهل الذمة في جباية الضرائب من أبناء ملتهم، فضلا عن أن الخلفاء تركوا معظم وظائف الدولة في أيدي الذميين (٦٥).

وقد ظلت الإدارة المالية لدمشق حكراً على أسرة سرجون حتى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك وتعريب الدواوين ، ومن الأمثلة على تسامح الأمويين (في المجال الاقتصادي) مع الذميين انه لما تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة وقيل ابنه يزيد ، شكى نصارى نجران إليه تفرقهم في النواحي وموت كثير منهم وإسلام آخرين، فطلبوا منه تخفيض الجزية فوضع عنهم مئتي حُلة أخرى، حيث كان الخليفة عثمان بن عفان(رض) قد وضع عنهم من قبل مئتي حُلة من جزيتهم لوجه الله تعالى وأوصى عامله على الكوفة بهم (٦٦) ،ولكن الحجاج بن يوسف الثقفي اتهمهم بموالاة ابن الأشعث فألغى التخفيض الأخير الذي حصلوا عليه في بداية العصر الأموي وأصبحت بذلك جزية أهل نجران ألف وثمانمئة حُلة كما فرض أن تكون حلل ووشي (٦٧).

وكان قرة بن شريك والي مصر من قِبَل الخليفة الوليد بن عبد الملك يهتم بعدالة حكام الأقاليم المختلفة ولا يجحف بحقوق الذميين ، وكان يأمر عماله في ألاّ يقرروا عليهم ضرائب فوق طاقتهم أو اقل مما يستطيعون أداءه، ونجده أحياناً يتجاوز عن بعض ما كان يُدفع كل عام من الجزية فيقبل منهم اقل مما اعتادوا دفعه رفقاً بهم ، وكان جباة الضرائب من الذميين كما أن حكام الكورات المختلفة منهم(٦٨).

وعند تولي عمر بن عبد العزيز الخلافة قام بإجراءات عديدة خففت عن الذميين ، فقد حدثت خلال العصر الأموي بعض الزيادات في نسب و مقادير الجزية بسبب حاجة الخلفاء إلى الأموال لكثرة الفتن الداخلية ، فعند توليه الخلافة خفض بعضها، كجزية أهل أيلة وجعلها على ما كانت عليه بمقتضى كتاب الرسول (ص)، كما خفض عمر جزية أهل قبرص إلى ما كانت عليه أيام معاوية . وذكرنا قبل قليل أن الحجاج زاد من جزية أهل نجران بعد أن خفضها معاوية فنظر عمر بن عبد العزيز في حالتهم بعد أن شكوا حالهم إليه فرأى أنهم أصبحوا العُشر فقط من عددهم الأول أيام الرسول(ص) لذا أخذ منهم عُشر الجزية التي فرضها عليهم الرسول(ص)(٦٩) . كما اسقط عمر عن البربر جزية (الأبناء) حيث كان هؤلاء يقدمون أبناءهم على سبيل الجزية (٧٠).

وأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بوضع الجزية عمن اسلم حيث كان بعض ولاة بني أمية في الأمصار يعمدون على أخذها منهم كي لا تنقص موارد بيت المال ، فأبطلها عمر لتنافيها مع التشريع الإسلامي ، قال تعالى ((وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً))(٧١) فمن أسلم من نصراني أو يهودي أو مجوسي من أهل الجزية فان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم (٧٢) ، وقال الخليفة عمر بن عبدالعزيز قولته المشهورة في هذا الصدد:((إن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً)) (٧٣) ، كذلك نرى سياسة الخليفة عمر بن عبدالعزيز تجاه الذميين تتجلى في كتابه إلى عامله على البصرة عدي بن أرطاة :((أنظر أهل الذمة فأرفق بهم وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه، فإذا كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه))(٧٤). ومما يؤيد أثر الإصلاحات والإجراءات المالية التي نهجها الخليفة عمر بن عبدالعزيز لأهل الذمة ما يذكره أبو يوسف صاحب كتاب الخراج بقوله: ((حدثني عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه قال : قلت لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ما بال الأسعار غالية في زمانك ، وكانت في زمان من كان قبلك رخيصة ؟ قال: إن الذين كانوا قبلي كانوا يكلّفون أهل الذمة فوق طاقتهم ، فلم يكونوا يجدون بداً من أن يبيعوا أو يكسد ما في أيديهم ، وأنا لا أكلف أحداً إلا طاقته ، فباع الرجل كيف شاء ، قال : فقلت : لو انك سعّرت لنا ، قال : ليس إلينا من ذلك شيء ، إنما السعر إلى الله))(٧٥) .

وخضع الذميون في خلافة عمر بن عبد العزيز للتعشير(٧٦) ، ودفعوا ضرائب على أموالهم التجارية ، وكان زريق بن حيان الدمشقي عامله على عشور مصر(٧٧)، وكان يُشترط في المال الخاضع لهذه الضريبة أن يكون معداً للتجارة، كما يُشترط أيضاً أن يبلغ نصاباً محدداً ،كما أنها لا تؤخذ إلاّ مرة واحدة في السنة، وأول من وضع العشور هو الخليفة عمر بن الخطاب (٧٨) .

واستمر خلفاء بني أمية في تسامحهم مع الذميين فنرى الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك(١٢٦هـ/٧٤٤م) يقول في خطبته عند توليه الخلافة: ((و ألاّ يحمل على أهل الجزية ما يجليهم عن بلادهم ويقطع نسلهم))(٧٩).

مما مر ذكره نرى أن الخلفاء الأمويين متسامحين مع أهل الذمة بشكل لم يره هؤلاء في أي عصر لهم ولاسيما في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي يتهمه البعض بالإجحاف بحقوق الذميين .

خامساً/ دور الذمـيين في مجـال الطـب.

من الممكن القول أن عدداً كبيراً من المطببين أيام الخلفاء كانوا يهوداً أو نصارى ، حيث يمكن القول أنهم برزوا بشكل واضح في هذا الجانب، والذي يهمنا هو معرفة من برز منهم فيه خلال العصر الأموي .

تذكر الروايات التاريخية أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان اتخذ له طبيباً نصرانياً يدعى إبن أُثال النصراني ، يقول عنه إبن أبي اصيبعة :((كان طبيباً متقدماً من الأطباء المتميزين في دمشق، نصراني المذهب، ولما ملك معاوية بن أبي سفيان دمشق اصطفاه لنفسه وأحسن إليه، وكان كثير الافتقاد له والاعتقاد فيه والمحادثة معه ليلاً ونهاراً، وكان ابن أُثال خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة وقواها، وكان معاوية يقربه لذلك كثيراً))[٨٠] .

ومن الأطباء الذميين الذين برزوا أيضاً في العصر الأموي (أبو الحكم الدمشقي) وهو طبيب نصراني عالم بأنواع العلاج والأدوية، وله أعمال مذكورة وصفات مشهورة ،وكان يستطبه معاوية بن أبي سفيان ويعتمد عليه في تركيب الأدوية لأغراض قصدها منه، وعندما تولى موسم الحج يزيد بن معاوية في خلافة والده، وجهه معاوية معه إلى مكة طبيباً له[٨١] ، وكان الحكم بن أبي الحكم طبيباً أيضاً، ويلحق بأبيه في معرفته بالمداواة والأعمال الطبية ،وأقام بدمشق ، وكما عمَّر والده طويلاً لأكثر من مئة عام فان ابنه عمَّر طويلاً أيضاً [٨٢] .

ومن الأطباء الذميين المشهورين حينذاك (تياذوق) واختص هذا الطبيب بخدمة والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي ،وكان مُجيداً لعمله وله نوادر ونصائح طبية مستحسنة ، عاصر أوائل خلافة بني أمية، واشتهر عندهم بالطب واعتمد الحجاج عليه ووثق به وبمداواته،وكانت له وصايا طبية قيمة ومؤلفات مهمة ، حيث صنف لابنه كُنّاشاً كبيراً بحث فيه مواضيع طبية شتى، ذكر منها بعض ما يخص أمراض المعدة والرئة وذات الجنب وغيرها ، وكتابي(ابدال الأدوية) و (تفسير أسماء الأدوية) ، وله قصيدة قالها في حفظ الصحة ،توفي في واسط سنة ٩٠هـ/٧٠٩م[٨٣] .

وكان لتياذوق تلاميذ بواسط تقدموا في الطب بعده، منهم (فرات بن شحناثا اليهودي) ،وقد وُصِفَ بأنه كان طبيباً كاملاً في وقته متقدم العهد ، خدم الحجاج بعد وفاة أستاذه ثم قَدِمَ بغداد في آخر عمره وتوفي في أيام الخليفة أبو جعفر المنصور [٨٤] .

ومن الأطباء الذميين الآخرين (ثاذون) الذي كان أيضاً طبيباً للحجاج بن يوسف وله كُنّاش كبير عمله لابنه[٨٥] . ومن الأطباء المشهورين أيضاً في هذا العصر(ماسرجويه البصري اليهودي)، الذي ترجم في عهد الخليفة مروان بن الحكم كُنّاش (آهرن بن أعين) من السريانية إلى العربية وخدم أيضاً الخليفة عمر بن عبد العزيز، ومن مؤلفاته كُنّاش صار من مصادر كتب الطبيب العربي أبو بكر الرازي وألّف كتابين: (الأطعمة ومنافعها ومصادرها) و(قوى العقاقير ومنافعها)[٨٦] .

مما مر ذكره يمكن معرفة ما كان للذميين من دور كبير في مجال الطب، حيث برزوا فيه بشكل واضح، ولاسيما إذا عرفنا أن الخلفاء الأمويين قد أولوا الطب اهتماماً كبيراً ، فالخليفة معاوية بن أبي سفيان انشأ مستشفى في دمشق ، والخليفة الوليد بن عبد الملك انشأ سنة ٨٨هـ/٧٠٧م مستشفى لعزل المجذومين وأسكنهم في قرية معزولة ، كما أجرى الخليفة الوليد بن يزيد على مزمني أهل الشام وعميانهم وكساهم وأمر لكل واحد منهم بخادم [٨٧].

سادساً/ نشـاط الذميـين الأدبي.

برز عدد من الأدباء الذميين في العصر الأموي، وكان لهم أثر واضح في الأدب العربي، سواء كانوا في البلاط الأموي أو بين عامة الناس.

فمن الشعراء الذين برزوا غياث بن غوث بن الصلت التغلبي المعروف بالأخطل(ت٩٥هـ/٧١٣م) حيث توثقت علاقته ببني أمية فتقلب في بلاطهم بدمشق ناعماً بالحظوة والإكرام ، حتى إذا ولي الخلافة يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ/٦٨٠-٦٨٤م) أحسن معاملته وجعله رفيقاً له، ومدح الأخطل يزيد وحين توفي رثاه .وقربه الخليفة عبد الملك بن مروان أيضاً ولقّبه بـ(شاعر بني أمية) و(شاعر أمير المؤمنين)، وأخذ يمدح الخليفة عبد الملك وأقرباءه؛ عمر بن عبدالعزيز وابني عبد الملك: الوليد وسليمان ، كما أشاد بذكر الخليفة عثمان بن عفان(رض) ،وهجا أعداء بني أمية(٨٨) .

وكان شعر الأخطل يتصف بالجودة والمتانة والتفنن، وقال صاحب (الأغاني) انه كان شاعراً نصرانياً من أهل الحيرة وأولع الخلفاء بشعره .[٨٩]

وقال في قصيدة في مدح الخليفة عبد الملك بن مروان :

إلى امرئ لا تعـدينا نوافلــه ... أظـفـره الله فليهنأ لـه الظـفــرُ
الخائض الغمر والميمون طائره ... خليفة الله يُستسقى به المطــرُ
والهمُّ بعد نجي النفس يبعثــه ... بالحزم والأصمعان القلبُ والحذرُ

ومعنى البيت الأخير : إذا بعثته نفسه إلى أمر جليل اهتم به وساعده على القيام به ؛ حزمه وذكاء قلبه وفطنته .[٩٠]

وقال في الفخر بقبيلته تغلب :[٩١]

واني لــمن علياء تغلب وائـل ... لأطــولها بيتاً وأثبتها أصــلاً
وعماي نعم المرء عمرو ومالك ... وثعلبة المولي بمنظوره فضلاً

إلاّ أن أكثر شيء أوصله إلى الشهرة قصيدته في مدح الأمويين:[٩٢]

شمس العداوة حتى يُستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

ومن الشعراء الذميين المشهورين أيضاً في العصر الأموي أعشى بني تغلب واسمه ربيعة بن يحيى بن معاوية التغلبي، وكان نصرانياً من أهل الجزيرة الفراتية يتنقل في البلاد ،وحينما يقصد الشام يسكن في الحضر(في دمشق مثلاً)، وإذا عاد إلى مساكن قومه في نواحي الموصل وديار ربيعة نزل في البادية[٩٣] .وكان من شعراء الدولة ،عاصر الخليفتين الوليد وسليمان ابني عبد الملك وعمر بن عبد العزيز[٩٤] ،كان الأعشى مكثراً مطيلاً وفي شعره جزالة ومتانة، وفنون شعره: المدح والهجاء والحماسة والوصف والغزل والخمر، وكانت له نقائض ويُعين الأخطل على جرير، ومن شعره المشهور ما قاله في الخليفة الوليد بن عبد الملك بعد وفاته:[٩٥]

لَعمري لقد عاش الوليدُ حياته ... إمامُ هدىً لا مستزاد ولا نزرُ
كأن بني مروان بعد وفاتــه ... جلاميدُ لا تندى وإن بَلّها القطرُ

الخاتمــة.

من كل ما مر ذكره عن أوضاع الذميين في العصر الأموي نرى التسامح والعدل الذي تمتعوا به في هذا العصر ، ونرى أيضاً أن الإسلام لم يكن دين طبقية بل انه دين يدعو لقيام المجتمع السليم الذي تنصهر فيه كل العناصر الموجودة على اختلاف أجناسها وألوانها وثقافاتها ومناحي تفكيرها مع سن شريعة لها ،قوامها الكفاية والعدل وإتاحة

الفرص للجميع ، وان لم يكن معنى ذلك تساوي المناصب، لان العمل عنده من كبرى الركائز في تقييم المرء ، واختلاف الناس في الدرجات فيما بينهم إنما يقوم على أساس إنتاج كل فرد منهم .
ويظهر أيضاً أن ليس لعرق النسب والأصل قيمة إلاّ فيما يؤديه صاحبه للمجتمع وليس للثروة الموروثة أثر، وما يقيم لهذين من قدر إلاّ المجتمع الطبقي، فضلاً عن ذلك إن الإسلام هو الذي سوى بين معتنقيه وبين من استظلوا بحكومته حتى ولو لم يعتنقوه ، لذلك كانت حضارته موصولة غير مقطوعة ومنتجة غير عقيمة ،وإذا كان الغرب يزهو على الدنيا بأن بعض شعوبه(في أزمنة متأخرة) قد ثارت على قيود الإقطاع والعبودية ونادت بالتحرر فان الحضارة الإسلامية هي التي أرست هذه القواعد منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ووضعتها موضع التنفيذ .
ونحن وان رأينا بعض الحالات الشاذة في معاملة الذميين ، لكن ذلك لا ينهض دليلاً على أن روح الإسلام هي المعاداة للأديان السماوية كالنصرانية واليهودية بل يجب أن نفتش عن الدوافع عن هذا العمل الشاذ في نواح أخرى غير الدين ذاته، فقد يكون مجبراً على عمل ذلك أو أن في ذلك مصلحة للمجموع ،ذلك إن كان هذا العمل ذا تأثير كبير على الذميين .
الهوامــش:

١. سورة البقرة، الآية / ٢٥٦,
٢ . الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ١١٥ .
٣ . ماكدونالد ، الذمة ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٩ ، ص ٣٩٠ .
٤ . اليوزبكي ، النظم العربية الإسلامية ، ص ٢٢٣ .
٥ . عبد الكريم زيدان ، أحكام الذميين ، ص ٢٢ .
6 . Cahen، Dhimma ، The Encyclopedia of Islam ، Vol / II ،. P. 227
٧ . زيدان ، أحكام الذميين ، ص ، ص ١٣ ، ١٦ .
٨ . سورة آل عمران، الآية / ٦٤ ، سورة العنكبوت ، الآية / ٤٦ .
٩ . زيدان ، أحكام الذميين ، ص ـ ص ١٣ ـ ١٤ .
١٠ . الحسني ، الصابئون ، ص ٤٣ .
١١ . سورة الأنعام، الآية / ١٥٦,
١٢ . زيدان ، أحكام الذميين ، ص ١٥ .
١٣ . كتاب الخراج ، ص ٦٧ ، ص ١٢٩ .
١٤ . سورة العنكبوت، الآية / ٤٦,
١٥ . سورة المائدة، الآية / ٥,
١٦ . أيلة : مدينة على ساحل بحر القُلزُم (الأحمر) مما يلي الشام ، وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام ، والمعنى واحد ، وهي صغيرة بها زرع يسير وحينما عقد الرسول(ص) معهم الذمة اشترط عليهم ضيافة من يمر بهم من المسلمين . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .
١٧ . البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧١ ، ص ٧٧ .
١٨ . أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٢٥ .
١٩ . اليوزبكي ، النظم ، ص ٢٣١ .
٢٠ . أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٢٥ .
٢١ . الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٢٤٥,
٢٢ . أبو يوسف، الخراج، ص ١٦,
٢٣ . الدعوة الى الإسلام ، ص ٢ .
٢٤ . س . هـ . بيكر ، جزية ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٦ ، ص ٤٥٤ .
٢٥ . أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٢٢,
٢٦ . سورة التوبة ، الآية / ٢٩,

٢٧ . ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ج ١ ، ص - ص ١ - ٢ .
٢٨ . أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٢٢ .
٢٩ . اليوزبكي ، تاريخ أهل الذمة في العراق،ص٤٤؛ النظم العربية الإسلامية، ص ١٥٤ .
٣٠ . ابن قيم الجوزية ، أحكام ، ج ١ ، ص - ص ٢٨ - ٢٩ ؛ اليوزبكي ، النظم العربية ، ص ١٥٤ .
٣١ . تريتون ، أهل الذمة ، ص ١٤ .
٣٢ . عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، ج ٢ ، ص ١٦٨ .
٣٣ . المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٩٨ .
٣٤ . هم أتباع مذهب الإمبراطور البيزنطي ، ويعرفون أحياناً بالروم الأرثوذكس .
٣٥ . سيدة إسماعيل كاشف، الوليد بن عبد الملك، ص ,٩٦
٣٦ . البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٤٩ .
٣٧ . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ٣٣١ .
٣٨ . نادية حسني صقر، سياسة عمر بن عبد العزيز، ص ٤٢، ص ,٤٤
٣٩ . المصدر نفسه ، ص - ص ٤٤ - ٤٥ .
٤٠ . سورة النحل ، الآية / ١٢٥ .
٤١ . سورة البقرة، الآية / ,٢٥٦
٤٢ . زيدان ، أحكام الذميين ، ص ٩٥ .
٤٣ . المصدر نفسه ، ص ٩٩ .
٤٤ . أبو يوسف الخراج ، ص ١٣٨ .
٤٥ . تريتون ، أهل الذمة ، ص ٣٧ .
٤٦ . المصدر نفسه ، ص ٤٠ .
٤٧ . المصدر نفسه ، ص ٤١ .
٤٨ . المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ .
٤٩ . تريتون ، أهل الذمة ، ص ٤١ - ٤٢ .
٥٠ . ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار،ج١،ص,٣٢٣
٥١ . اليوزبكي ، النظم ، ص ٢٣٤ .
٥٢ . البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٢ .
٥٣ . تريتون ، أهل الذمة ، ص ٤٢ .
٥٤ . الدولة العربية وسقوطها ، ص - ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .
٥٥ . المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٩٢
٥٦ . فلهاوزن ، الدولة العربية ، ص ٣١٩
٥٧ . الزُنّار: حزام كان الذميون يشدونه على أوساطهم، وهو علامة فارقة اختصوا بها دون غيرهم، لتميزهم عن المسلمين، وهي يونانية الأصل دخلت العربية عن طريق اللغة الآرامية. تريتون ، أهل الذمة ، ص ١٣٠ .
٥٨ . ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج١، ص ,١٧٩
٥٩ . تريتون ، أهل الذمة ، ص ١٢٨ .
٦٠ . البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٥ .
٦١ . ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ص ١٥٩ .
٦٢ . تاريخ العرب ، ص- ص ٢٩٨-,٢٩٩
٦٣ . نادية حسني صقر ، سياسة عمر بن عبدالعزيز ، ص - ص ٧٠ - ٧١ .
٦٤ . زيدان ، أحكام الذميين ، ص - ص١١٠ - ١١١ .
٦٥ . كاشف ، الوليد بن عبدالملك ، ص ٩٦ .
٦٦ . صقر ، سياسة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٣ ، ص ٥٠ .

٦٧ . البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٧٨ .
٦٨ . كاشف ، الوليد بن عبد الملك ، ص ـ ص ٩٥ ـ ٩٦ .
٦٩ . فلهاوزن ، الدولة العربية ، ص ٢٩١ .
٧٠ . بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ج١ ، ص١٨١ ؛ صقر ، سياسة عمر بن عبدالعزيز ، ص ٤٨ ، ص ٥١ .
٧١ . سورة سبأ ، الآية / ٢٨ .
٧٢ . ابن عبدالحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٩٤ .
٧٣ . أبو يوسف، الخراج، ص ,١٣١
٧٤ . محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية، ص ,٤٣٣
٧٥ . أبو يوسف، الخراج، ص ١٣٢.
٧٦ . ابن عبدالحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٩٨ .
٧٧ . المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٢٢
٧٨ . أبو يوسف، الخراج، ص ,١٣٥
٧٩ . فلهاوزن ، الدولة العربية ، ٣٥٢ .
٨٠ . ابن أبي اصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ـ ص ١٧١ ـ ١٧٢ .
٨١ .القفطي ، تاريخ الحكماء ؛ ابن أبي اصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ـ ص ١٧٥ ـ ١٧٦ .
٨٢ . ابن أبي اصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ١٧٦ .
٨٣ . القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص ١٠٥ ؛ ابن أبي اصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ١٨٠ .
٨٤ . القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص ١٠٥ ، ص ٢٥٥ .
٨٥ . المصدر نفسه ، ص ١٠٨ .
٨٦ . المصدر نفسه ، ص ـ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ .
٨٧ . لبيد إبراهيم احمد وآخرون ، الدولة العربية الإسلامية ، ص ٣٥٣ .
٨٨ . حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص ٢٧١ .
٨٩ . أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج ٨ ، ص ٢٨٢ .
٩٠ . اليسوعي ، شعراء النصرانية بعد الإسلام ، ص ١٨٥ .
٩١ . المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .
٩٢ . لبيد إبراهيم وآخرون ، الدولة العربية ، ص ٣٣٢ .
٩٣ . فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، ج ١ ، ص ٦٢٩ .
٩٤ . اليسوعي ، شعراء النصرانية ، ص ١٢٢ .
٩٥ . المصدر نفسه ، ص ١٢٤ ؛ فروخ ، تاريخ الأدب العربي، ج ١ ، ص ـ ص ٦٣٠ ـ ٦٣١ .

قائمة المصادر والمراجع

ـــ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٣م)،
١ــ الكامل في التاريخ ، تحقيق : أبو الفدا عبدالله القاضي ، ط١(بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م) .
ـ أحمد ، لبيد إبراهيم وآخرون
٢ــ الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي، (بغداد: جامعة بغداد، ١٩٩٢م).
ـ آرنولد ، توماس
٣ــ الدعوة إلى الإسلام ، تر: حسن إبراهيم حسن وآخرون، (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ،١٩٧١م) .

ـ ابن أبي اصيبعة ، أبو العباس احمد بن القاسم (ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م) ،
٤ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، (بيروت: دار ومكتبة الحياة، ١٩٦٥م).
ـ بروكلمان ، كارل
٥ـ تاريخ الشعوب الإسلامية ، تر: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط ٣(بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٠م) .
ـ البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩ هـ/ ٨٩٢م) ،
٦ـ فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، ط ١(القاهرة: المطبعة المصرية بالأزهر، ١٩٣٢م).
ـ بيكر ، س . هـ
٧ـ جزية ، دائرة المعارف الإسلامية ، تر: احمد الشنتناوي وآخرون ط ١ (القاهرة: دار الشعب ، د . ت) .
ـ تريتون ، أ . س
٨ـ أهل الذمة في الإسلام، ترجمة وتعليق: حسن حبشي، ط ٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧م).
ـ حتي ، فيليب وآخرون
٩ . تاريخ العرب، ط٥ (بيروت: دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٤م).
ـ الحسني ، عبد الرزاق
١٠. الصابئون في حاضرهم وماضيهم، ط ٢ (بيروت: ١٩٥٨م).
ـ حمادة، محمد ماهر
١١ . الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي (٤٠ ـ ١٣٢ هـ)، ط١(بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٤م).
ـ زيدان ، عبد الكريم
١٢ . أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، ط ١ (بغداد: جامعة بغداد، ١٩٦٣م).
ـ صقر، نادية حسني
١٣ . سياسة عمر بن عبد العزيز تجاه أهل الذمة، (المعمورة: ١٩٨٤م).
ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت٣١٠ هـ/ ٩٢٢م)،
١٤ . تاريخ الرسل و الملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧م).
ـ ابن عبد الحكم ، أبو محمد عبد الله (ت٢١٤ هـ/ ٨٢٩م) ،
١٥ . سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق: احمد عبيد، ط٥(بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٦م).
ـ ابن عساكر ، علي بن الحسن الدمشقي (ت ٥٧١ هـ/ ١١٧٥م) ،
١٦ . تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذبه:عبد القادر بدران، ط ٢ (بيروت: دار المسيرة، ١٩٧٩م).
ـ الفاخوري ، حنا
١٧ . تاريخ الأدب العربي (بيروت: ١٩٥٣م).
ـ أبو الفرج الأصفهاني ، علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧م) ،
١٨ . الأغاني، (القاهرة: مطبعة بولاق ، ١٢٨٥ هـ/ ١٨٦٨م) .
ـ فروخ ، عمر
١٩ . تاريخ الأدب العربي، ط١(بيروت: منشورات المكتب التجاري، ١٩٦٥م).
ـ ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أبو العباس احمد بن يحيى القرشي(ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م)،

٢٠ . مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج١، تحقيق:احمد زكي، (القاهرة:دار الكتب المصرية، ١٩٢٤م).
- فلها وزن ، يوليوس
٢١ . الدولة العربية وسقوطها، تر: يوسف العش، (دمشق: مطبعة الجامعة السورية، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م).
- الفيروزآبادي ،مجدالدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت٨١٧هـ/١٤١٤م)،
٢٢ . القاموس المحيط، ط٤(القاهرة: مطبعة دار المأمون، ١٣٥٧هـ).
- القفطي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م) ،
٢٣ . تاريخ الحكماء ، تحقيق: يوليوس لبرت، (لايبزك : ١٩٠٣م) .
- ابن قيم الجوزية ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت٧٥١ هـ/١٣٥٠م) ،
٢٤ . أحكام أهل الذمة، حققه وعلق على حواشيه: صبحي الصالح (دمشق: مطبعة جامعة دمشق،١٣٨١هـ/ ١٩٦١م) .
- كاشف ، سيدة إسماعيل
٢٥ . الوليد بن عبد الملك (القاهرة:المؤسسة المصرية العامة للكتاب،١٩٦٢م).
- ماجد، عبد المنعم
٢٦ . التاريخ السياسي للدولة العربية ، ط٢(القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٢م) .
- ماكدونالد ، د . ب
٢٧ . الذمة ، دائرة المعارف الإسلامية ، تر: احمد الشنتناوي وآخرون، ط١(القاهرة : دار الشعب ، د . ت) .
- المقريزي ، تقي الدين أبو العباس احمد بن علي(ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)،
٢٨ . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط ، (بغداد : مكتبة المثنى، ١٩٧٠م) ، وهي طبعة معادة بالاوفست عن طبعة: (القاهرة : مطبعة بولاق ، ١٢٩٤هـ) .
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) ،
٢٩ . معجم البلدان، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).
- اليسوعي ، لويس شيخو
٣٠ . شعراء النصرانية بعد الإسلام، ط٢(بيروت:المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٧م).
- اليوزبكي ، توفيق سلطان
٣١ . تاريخ أهل الذمة في العراق(١٢-٢٤٧هـ)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (القاهرة: ١٩٧٢م) .
٣٢ . النظم العربية الإسلامية، ط٢(الموصل: جامعة الموصل، ١٩٧٩م).
- أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢ هـ / ٧٩٨م) ،
٣٣ . كتاب الخراج، ط ٢ (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٥٢هـ).
Cahen,Cl -
٤٣ - Dhimma, The Encyclopedia of Islam, new edition (Leiden: E. J. Brill/London: Luzacand Co, 1965).